مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الرابع والعشرون

٢٤

مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

طه حسين

الدكتور عبد الرزاق محي الدين

بعض الشخصيات من خوارق العادات لايتأتي لنا تسبيبها بما نملك من وسائل المعرفة ولا نشهد وجودها الا في فترات جد متباعدات .

وطه حسين ظاهرة خارقة شهدت مثلها الامة العربية مرة قبل الف عام في ذات (ابي العلاء المعري) ومرة بعد الف عام من ذلك في شخص الدكتور طه حسين ولا نعلم أن شهدت الامة العربية قبل ابي العلاء المعري نظيراً له في تاريخها المترامي البعيد فهل ستشهد الامة العربية بعد (طه حسين) نداً له ولو في مستقبلها المترامي البعيـــد .

ولربما ذهب الظن الى اني اغلي بالرجل او احاول ان انعته بالكمال الذي لايشوبه نقص فذلك ابعد شيء عن قصدي ولا هو مما يؤديه قولي : بانه ظاهرة خارقة للعادة .

ويحسن مقدما ان اسجل انه كغيره من الشخصيات الادبية مظنة للخطأ والصواب بل لعل خطأه كفاء صوابه ، ولكن ذلك لايمنع ان يكون حتى لخطئه ميزة يفضل بها صواب غيره ، وشأن يؤثر به على كثير من الصواب .

ذلك ان بعض الخطأ يصيب من احتفاء الناس اضعاف ما يناله صواب المصيبين فليس محض الصواب جالباً لاحتفاء الناس واحتفالهم . ولا محض الخطأ باعثا على

زهد الناس وازدرائهم . انما يدور احتفاء الناس وعنايتهم مدار مايثيره اي من الخطأ والصواب في نفوسهم ، فقد يثير الخطأ اضعاف مايثيره الصواب ، وذلك حين يكون الخطأ يحمل سمات الصواب او يبدو الخطأ وكانه انتزع واستخلص من اعراف ومسلّمات ساد الرأي على انها من الصواب .

وقد يعجز كثير من الصواب ان يثير في احدنا انتباهاً او فضولاً وذلك حين يكون الصواب من البدائه المسلّمة والمدركات التي لايختلف عليها اثنان ، كبعض الحكم والمواعظ المكرورة او يكون الصواب معروضاً عرضاً مهلهلاً وباسلوب لاحرارة فيه ولا ظاهرة اعتداد

وكان طه حسين من اولئك الذين استثاروا الالسنة ، وشغلوا النفوس والعقول في جلّ ما نفى واثبت ، وصحح وأبطل ، ولم يذهب شيءٌ مما ذهب اليه بالحق او بالباطل جزافا من غير نفع وعبثا من غير جدوى ، بل كان جلّ ما جاء خيراً ونفعاً ومثار خير ونفع .

انتفع به من أنكره ، وانتفع به من صدقه والتقى المنكر والمصدق على حقيقة متسالم عليها من تقدير الرجل واستشعار خطره ، والشكر لسعيه ، والنظر اليه ظاهرة خارقة بين الظواهر .

ولقد آثرت ان تكون كلمتي فيه تسجيلاً لانطباعات ليس مما دوّنه تاريخه فتأريخ الرجل مقروء مسطور ، وان تكون منتزعة مما بين السطور ومن وراء الكلمات فذلك ما لعله أوفى تعريفاً بشخصيته وبمكانه في جيله ، وأثره فيه .

هناك انطباعات عن أثر الرجل في الحياة الادبية المعاصرة لم يشركه فيها احد بالصفة التي كانت له ، منها .

١ــ ان تاريخ الادب العربي (علماً من علوم اللغة العربية) مدين له فيما يلقى

من عناية الجامعات فيما افسحت له من ساعات تدريس ومادة دراسة ، ثم فيما انتهت اليه الدراسات من نضج ، او فيما اعتمدت من منهج .

فمن الناحية الاولى ، يأخذ تاريخ الادب العربي في مناهج الدراسات العربية من الوقت والرعاية اكثر مما يأخذه ايّ من فروعها ، بحيث لو قرن ما يأخذه تاريخ الادب بما يأخذه النحو او الصرف او البلاغة ، اوغيرها من علوم العربية لكان حظ تاريخ الادب اوفر وأعلى نصيباً .

وما كان الامر كذلك في تقديري لولا حماسة هذا الرجل لهذا الفرع من علوم العربية والدعوة له والتبريز به ، واقترانه بشخصه اقترانا رفع من رصيده وجعله اظهر ما امتازت به الجامعة المصرية من فروع علوم اللغة ، وسرت عدوى ذلك من الجامعة المصرية الى الجامعات العربية في مختلف الاقطار .

ومن الناحية الثانية فإن ما اختطه طه حسين من منهج لدراسة تاريخ الادب العربي وبخاصة منهجه في دراسة تاريخ الادب الجاهلي كان ذا أثر بالغ في بعث الادب الجاهلي وفي استجلاء خصائصه وفي لفت نظر الناس الى ما يلابس تاريخه من ظنون . ويعتور نصوصه من شكوك في واقعه او صحة نسبته او في الاسباب والعوامل أدت الى خلقه او اختلاقه . وما كان ذلك يتم وعلى الصورة التي تمّ عليها لولا منهج طه حسين واسلوبه في البحث .

ويشهد على أثره الشخصي في ذلك ان العصور التي يؤثرها (طه حسين) بدراسة من عنده لم تؤثر بدراسة قيمة من غيره . وأنّ أقوم تلك الدراسات الادبية المعاصرة كانت تلك التي اتصلت بدراساته ، بسبب وآخر ، اثباتاً أو نقضاً ، تأييداً أو تهويناً ، ومن جماع ذلك حفلت المكتبة العربية بمصادر للادب الجاهلي لم تحفل بمثلها بقية العصور ، واستجلت خفايا هذا الادب على وجه لم يستجل بها غيره .

و كذلك يمكن ان يقال عن أثره في الدراسات غير الجاهلية التي عني بها أمثال دراساته لبعض ادباء العصر الاموي في حديث الاربعاء ، أو دراسته للمتنبي أو ابي العلاء المعري .

ومن معطيات الرجل انه خلع من شخصيته على شخصية مؤرخي الادب المعاصرين جلباباً من الاعتداد والخيلاء ، بحيث سرى من صنيعه الى صنيعهم اجتراء على نقد النصوص والتحكم فيها ، وهو أمر لم يتهيأ مثله لدراسة فروع العربية الاخرى .

ومما تميز به بين جمهرة الادباء انه جمع الى شخصية الاديب المرموق شخصية الاديب المهيب فلست اعرف شخصية ادبية معاصرة لها من حب العامة او تهيب الخاصة ما (لطه حسين) ، فهو الى مايتمتع به من شخصية محببة الى جماهير المتأدبين يتمتع بهيبة خاصة بين خاصة المثقفين والمتأدبين . يشهد ذلك كل من خالط اعلام الادب واساطين الثقافة من جيله ولاحظ ما يلقون به الرجل حين يحضرون مجلسه ، وما يستشعرون من خطره حين لا يكون حاضر المجلس .

ولقد اعرف بين اولئك من لايعجبه العجب ولا يثنيه حرمة أدب حتى اذا حدّث طه ، وذكر رأيه تطامن وتداخل وترّجل وتضاءل ، وادركت ان جبلاً من التطاول والادراء انثال حتى ساوى الارض ولصق بالقاع . كذلك لااعرف بين كل من عرفت من اساطين الادب من لم يرقب راى (طه) في بحثه أو مقالته أو كتابه ومن لايعتز بالكلمة يقولها عنه ــ استطراداً في مقالة او قصداً في حديث .

و كان مجلس طه حيث يكون مجلسه ، في بيته ، في الجامعة ، في المجمع ، في اللجان الثقافية المختلفة ، تظلله هالة من شخصيته ، فلا يرتفع صوت على صوته ولاينتظر رأى بعد رأيه . وانما الحوار معه وفي مجلسه مراجعة بأدب ، واصغاء بقناعة .

وشيء عن جيل (طه) في مصر يحسن ان يذكر بل لابد ان يستعرض ويستجلى ، وبغير ذلك لايتم تحديد مركز طه الادبي في جيله ، ولا مقام جيله بين الاجيال

العربية التي سبقته وبهذا الاستعراض نعرف بالضبط مكانة جيله بين الاجيال ومكانته في جيله .

الجيل العربي المصري ، الذي ولد في نهايات القرن التاسع عشر أو في طلائع القرن العشرين وعاش شبابه و كهولته وشيخوخته خلال سبعين عاماً من عمر هذا القرن جيل فذ نادر بين الاجيال العربية ، بحيث لو أخذنا أى فترة من فترات تاريخنا الثقافي توازيها عدد سنين ، وقرناها بهذه الفترة لأربت هذه عليها ثقافة وادباً وعلماً .

ولو جاز ان نجد له شبيهاً في جيل القرن الرابع الهجري وهو ما يصح ان يخطر في الذهن ، فان ملاحظة مهمة ودقيقة يحسن ان تلاحظ هي ان القرن الرابع الهجري جاء في اعقاب قرون ثلاثة من نهضة شاملة تمت وتطورت خلالها المعارف والعلوم و كان القرن الرابع زبدة ذلك المخاض وخلاصته ، على حين نبغ جيل هذا القرن في اعقاب خمول عربي لعدة قرون كادت العربية فيها ان تنسى خصائصها ومزاياها

وفي هذا القرن برز عدد كبير من الكتاب وعدد مثلهم من الشعراء ، ونظيرهم في التاريخ والفقه والقانون وفي علوم الدين والتمثيل والغناء والنحت .

في هذا الجيل ظهرت اساليب بيانية تربو في عدد ها على جملة اساليب البيان العربي في مختلف عصوره فهناك اسلوب يتميز لكل من طه حسين وعباس محمود العقاد وابراهيم المازني والمنفلوطي ، واحمد حسن الزيات ، ومصطفى الرافعي واحمد امين ، وزكي مبارك وغيرهم وقل مثل ذلك عن اعلام كثيرين في مختلف العلوم والفنون .

هذا الجيل الفارع الممتد إمتداد آفاق العلم ، والمتشعب تشعب فنون الادب شيء كثير بل كثير جداً على عمر هذه الفترة الزمنية القصيرة .

في داخل هذه الحقيقة من تميز هذا الجيل تدرك مدى ما يجب ان يكون عليه

الفرد من طاقات حتى يعد من آحاده البارزين ، فكيف الامر بمن يجيء الاول بين هؤلاء ، او يكون الثاني بينهم تجيء وراء ه صفوف من الشخصيات البارزة .

ولقد كان طه حسين الشخصية الاولى بين اعلام جيله ، والا فهو ، في الرعيـــل الاول من ابناء هذا الجيـــــــــل .

عبد الرزاق محي الدين